٢

وحدة الإنسانية فى حياة الرسول

أود أن نقوم معاً برحلة عبر التاريخ إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة، لنرى الطلاب الذين جاءوا إلى جامعته ، أو تتلمذوا على هديها ، ونحاول أن نحللهم عنصرياً واجتماعياً ، ثم ننظر بعد هذا إلى جوانب الحياة التى برزوا فيها ، وقدموا خدماتهم إلى الإنسانية عن طريقها ، ثم نربط بين هذا كله وبين حياة الرسول ، وهى كانت — بطبيعتها — ختام النبوات ، ومنطلق العقل الإنسانى إلى حمل مسئولياته من أجل حياة أفضل .

١ — باقة إنسانية

طلاب هذه الجامعة الإسلامية على عهد الرسول لم يكونوا من قبيلة واحدة ، ولا من عنصر واحد ، ولنأخذ نماذج لذلك :

من قريش كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة الزبير .

ومن تهامة — على ساحل البحر الأحمر — كان أبو ذر وأنيس من غفار .

ومن اليمن أقبل أبوهريرة وطفيل الدوسى ، كما جاء أبو موسى الأشعرى ، ومعاذ بن جبل .

ومن البحرين على الخليج العربى جاء منقذ بن حبان ، ومنذر بن عائذ ، من قبيلة عبد القيس .

وهذا فروة بن عامر من معان ببلاد الشام .

كل الجزيرة العربية كانت ممثلة فى هذه الجامعة النبوية . . . مكة أم القرى وما حولها فى اليمن وتهامة والخليج العربى والشام .

ولكن الدائرة كانت أوسع .

فهذا بلال من الحبشة ، وهذا صهيب الرومى ، وهذا سلمان الفارسى ، وهذا فيروز الديلمى .

والرسائل التى بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وحكام الأقطار المحيطة بالجزيرة العربية فى مصر والشام وفارس والحبشة.. كانت تستهدف توسيع هذه الدائرة . فالرسالة من أول أمرها عالمية ، وهى مفتوحة للجميع ، دون أية تفرقة عنصرية أو عصبية إقليمية : « وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ » [الأنبياء : ١٠٧] .

٢ – تحليل اجتماعى

وكان الإيمان هو الرباط الأكبر الذى يجمع بين هؤلاء جميعاً . وبه استطاعوا أن يروا جوهر الإنسان ، الذى كرمه الله ، رؤية ترفع مكان الإنسان فلا يصبح مجالا يستغله إنسان آخر اقتصاديا أو اجتماعيا .

وكان فى هذا المجتمع الأغنياء كأبى بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وكان فيه رؤساء أقوامهم مثل فروة عظيم معان ، وذى الكلاع رئيس حمير .

وكان فيه الفقراء والمستضعفون كبلال وياسر وصهيب وخباب .
وكان فيه المستضعفات كسمية ولبينة وزنيرة .

ودعا الإسلام الأغنياء إلى البذل : « وسارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ والأَرْضُ أُعدَّتْ للمتَّقِينَ * الَّذِين يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكَاظِمِينَ الغَيْظَ. والعَافِينَ عن الناسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ » [آل عمران :١٣٣-١٣٤] .

وربط بين عذاب الله وحرمان الفقير حقه فى المال ، فقال فى وصف أهل النار يوم القيامة : « ما سَلَكَكُمْ فى سَقَرَ ؟ * قالوا : لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ * ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ * وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ » [المدثر ٤٢ - ٤٥] .

كان التكافل الاجتماعى قاعدة لترابطهم ، يأتون إلى المجتمع الإسلامى ، أغنياء أو فقراء ، ولكن عليهم أن يطرحوا وراءهم شح الأنفس ، والتكاثر بالأموال ، ويعيشوا إخوة متحابين عاملين منتجين .

٣ - تنمية شاملة

ويدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العمل ، فى كل مجالات الحياة :

١ - لقد استردوا أرضهم التى اغتصبها منهم يهود بنى قينقاع وبنى النضير

وبنى قريظة ، وأعاد الرسول توزيعها على فقراء المدينة من المهاجرين والأنصار . ووضع نظاماً دقيقاً لتوزيع المياه بين الذين يسكنون عوالى المدينة ، والذين يسكنون سافلتها فى الشمال والغرب .

٢ ــ وارتبط باسترداد الأرض السيطرة على المواقع الحاكمة التى كانت فى أيدى اليهود ، واستطاعوا بها من قبل أن يهددوا قاعدة الإسلام فى المدينة ، واتخذوها مراكز للتآمر وفتح الثغرات أمام أعداء الإسلام .

٣ ــ ووضع الرسول تخطيطاً دقيقاً لغزواته ، يستهدف أولا قطع طريق التجارة الساحلى على قريش ، فلما سيطر عليه قطع عليهم طريق نجد الداخلى . وعقد سلسلة من المحالفات مع القبائل على طريق التجارة ، واستطاع بهذا أن يؤثر تأثيراً عميقاً على الموارد الاقتصادية لقاعدة المقاومة فى مكة ، وعندما اجتمعوا عليه جميعاً فى غزوة الأحزابُ ، استخدم سلاح الحرب النفسية للإيقاع بين أعدائه ، ثم عقد صلح الحديبية مع قريش ، ليفرغ فى العام التالى لتصفية الجيوب اليهودية فى الجبهة الشمالية : فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى ، وليعود بعد هذا إلى فتح مكة فى العام الثامن بعد الهجرة .

٤ ــ هذا بينما كان حريصاً أشد الحرص على سلامة الجبهة الداخلية ، يحل المشكلات التى تنجم بين قبائل الأنصار ، ثم بين المهاجرين والأنصار ، قاضياً على مؤامرات المنافقين ، سالكاً سبيل التلطف أحياناً ، والشدة أحياناً ، جامعاً قلوب أصحابه حول الهدف الكبير .

٥ ــ وعندما احتاج المسلمون إلى خبرات علمية فى آلات الحصار ، ومهاجمة الحصون ، كان من أبناء المسلمين من يذهب إلى جُرَش

ـ وهى بلدة فى الأردن الحالية ـ ليتعلموا فيها هذه الخبرات ، التى أثبت التطور العسكرى وقتئذ حاجة المسلمين إليها . فالبعثات العلمية وتطوير وسائل الحرب كانت قاعدة متبعة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

٦ ـ وكما كان التطوير فى الأساليب والمعدات ، كان هناك تدعيم لحجم القوات المحاربة ، وللأساس الاقتصادى الذى يمد الجيش بما يحتاج إليه . وبهذا تكاملت القوى المادية والمعنوية والعلمية للارتفاع بفاعلية الجيش المحارب .

فالتنمية فى قاعدة الإسلام بالمدينة كانت شاملة : كانوا يحاربون وينتجون ، يفكرون ، ويعملون ، ويخططون وينفذون ، فى ترابط مؤمن بين القيادة والقاعدة ، وإحساس عميق بفضل الله عليهم أن هداهم للإيمان ، وألف بين قلوبهم ، وهداهم سبيل الرشاد .

٤ ـ خاتم المرسلين

كانوا يعملون مع رسول قال فيه ربه : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ واليَوْمَ الآخِرَ وذكر الله كثيرًا » [الأحزاب : ٢١] ووصفه بقوله : « وإنَّكَ لعلى خُلُقٍ عظيمٍ » [القلم : ٤] وعلمه كيف يدعوه مستزيدًا من العلم : « وقُلْ : ربِّ زِدْنِى عِلْماً » [طه : ١١٤]

وننظر إلى حياته فنراها – كما رأينا حياة مجتمعه – شاملة ما قاسى من أعدائه ، وما بذل من جهد صابر كريم ، وما قام به من عمل ، فى كل مجالات الحياة :

١ – وكما وقف المسيح عليه السلام يلقى عظته على جبل الزيتون مبشراً بالخير والمحبة ، وقف الرسول صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا يدعو الناس إلى الإيمان: « إن الرائد لا يكذب أهله .. والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون » .

وتتابعت بعد هذا خطبه وعظاته حتى وقف بآلاف المؤمنين فى حجة الوداع على جبل عرفات يدعو الناس إلى احترام الإنسان : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا » .

٢ – وكما خرج موسى مهاجراً مع قومه ، خرج الرسول مهاجراً مع صاحبه الأمين . وآوى إلى الإيمان والغار ، وأقدام أعدائه على فم الغار ، وصوت الحق يردد: « إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [التوبة : ٤٠] .

٣ – وكما عاش داود مرتلا المزامير متعبداً إلى ربه بها ، نسمع قول

الله مخاطباً رسوله : « يـأَيُّها المُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيلَ إلاَّ قَلِيلاً * نِصفَهُ أَوِ انْقصْ منه قليلا * أو زِدْ عَلَيْه ، وَرَتِّلِ القُرْآن تَرْتِيلاً . » [المزمل : ١ — ٤] .

٤ — وكما صبر أيوب على بلاء الله فى فقد الأهل والمال والولد . صبر الرسول هو وأصحابه عندما حاصرهم قريش فى شعب بنى هاشم ثلاث سنوات ، لا يجدون من القوت إلا النزر اليسير ، حتى جفت أثداء النساء ، وتعالت أصوات الرضع والصبية من الجوع والحرمان ، وكانوا يأكلون ورق الأشجار حتى تقرحت شفاههم .

٥ — وكما خطط يوسف لموارد مصر وادخارها واستهلاكها ، وضع الرسول تخطيط مجتمع شامل ، لم يقتصر على جوانب التموين وحدها ، وإنما امتد إلى كل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية على الصعيد الداخلى والخارجى .

ونستطيع أن نتتبع جوانب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لنرى فيها تلخيصاً لحيوات النبوات السابقة ، ثم اطمئناناً إلى حكم العقل الإنسانى وتحكيمه ، إذا ما سلم من الهوى . وفى هذا يقول الله :

« قُل : إنَّمَا أَعِظُكُمْ بواحدةٍ ، أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنَى وفُرادَى . ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ، ما بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّة ، إنْ هو إلاَّ نذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عذاب شديد » [سبأ : ٤٦] .

٥ ـ محاور رئيسية

ومع القضايا الشاملة التى تمثلت فى مجتمع المدينة وفى حياة الرسول ، كنا نجد محاور رئيسية تدور حولها هذه القضايا . وأكتفى منها بمحور واحد هو : تحرير مكة من سيطرة قريش وتحرير المدينة من سيطرة اليهود .

ولقد استطاع الرسول تحرير المدينتين ، وعندما دخل المسلمون مكة كان هذا هو الفتح المبين الذى وعدهم الله إياه .

لقد عادوا بعد أن أخرجتهم قريش ، وصادرت أموالهم وديارهم . عادوا ليرتفع صوت الأذان فوق الكعبة وليطوفوا حولها آمنين .

ونحن الآن قد أخرجنا أعداؤنا من بيت المقدس وأرضنا العربية السليبة ، أخرجونا من مساجدنا وحقولنا ومصانعنا وقرانا وأرضنا . وتمام التأسى بالرسول عليه الصلاة والسلام فى هذه المرحلة المصيرية من حياتنا أن تتركز أنظارنا على بيت المقدس والأرض السليبة .

فلنعمل كما عمل الرسول : تنمية شاملة فى المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعلميا ، ولتكن عيوننا فى الوقت نفسه على مقدساتنا وأرضنا ليكون لنا فتح قريب .

إن العودة إلى بيت المقدس والأرض السليبة هى امتداد لعودة الإسلام والمهاجرين إلى مكة . . وعودة السلام إلى أرض السلام .

إن كل جهد يبذل فى هذه السبيل عسكرى واقتصادى ، مادى ومعنوى هو خطوة مؤمنة على طريق النصر ، الذى نصنعه ليسعد به الجميع .

وتحية إلى كل جندى فى الجبهة ، وكل عامل فى موقع من مواقع الإنتاج ، وكل فدائى لا تطلع على جهده إلا عين الله ، وكل شهيد لقى ربه : وسامه من دم على صدره . وجزاؤه عند رب لا تضيع عنده الودائع .

obeikandl.com